الفصل السادس والعشرون

إدوارد السادس وماري تيودور

١٥٤٧ — ١٥٥٨

١ — حماية سومرست

لقد رسم هولبين صورة تعد من أعظم صوره على الإطلاق جاذبية للصبي البالغ من العمر عشر سنوات ، والذى ارتقى عرش إنجلترا باسم إدوارد السادس ، وذلك قبل ارتقائه العرش بأربع سنوات : قلنسوة مزينة بالريش ، وشعراً أحمر ، ورداءً له بنيقة من فرو للقاقم ، ووجهاً فيه من الدعة والرقة التى تنم على قلق دفين ، ما يدفعنا إلى الظن بأنه ورث كل هذه الصفات من جين سيمور ولم يرث شيئاً من هنرى الثامن . ولعله ورث عنها ضعفها الجسمانى الذى جعلها تدفع حياتها فداء له ، ولم يوفق يوما فى الحصول على القوة التى تعينه على الحكم . ومع ذلك فإنه قام بالتبعات الملقاة على عاتقه باعتباره أميراً أو ملكاً بإخلاص نبيل ، فدرس اللغات والجغرافية وفن تدبير الحكم والحرب بشغف ، وفرض رقابة دقيقة على كل شئون الدولة التى تصل إليها معرفته ، وأبدى للجميع ما عدا الكثالكة المنشقين شفقة عظيمة وحسن نية كبيرة ، إلى حد أن إنجلترا ظنت أنها دفنت غولا لتتوج قديساً . وتعلم على يد كرانمر فأصبح بروتستانتيا متحمساً ، ولم يكن من أنصار توقيع أى عقوبة قاسية على من يتهم بالهرطقة ، ولكنه كره أن يترك أخته غير الشقيقة مارى تحضر القداس ، لأنه كان يؤمن بإخلاص أن القداس أشد ضروب عبادة الأوثان كفراً . وقبل مسروراً القرار الذى اتخذه المجلس

الملكى باختيار عمه إدوارد سيمور — الذى أنعم عليه حالا بلقب دوق أف سومرست — وصيا عليه ، وقد آثر انتهاج سياسة بروتستانتية .

كان سومرست رجلا على حظ من الذكاء والشجاعة ، ويتصف بتماسك ، يشوبه بعض النقص ، وإن كان فى عصره من السجايا البارزة ، وكان وسيما رقيق الحاشية كريما ، وأخجل بسيرته الطبقة الأرستقراطية الجبانة التى كانت لا تنشد إلا مصلحتها ، وتغفر له كل شيء إلا تعاطفه مع الفقراء . وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بسلطة مطلقة تقريباً ، فإنه قضى على الحكم المطلق الذى أقامه هنرى السابع وهنرى الثامن ، وسمح للناس بحرية أكبر فى التعبير بالكلام ، وخفض عدد الأفعال التى كانت تعد فيما سبق من قبيل خيانة الدولة أو الخيانة العظمى ، واقتضى وجود دليل أقوى للحكم بثبوت الجريمة ، وأعاد إلى أرامل المحكوم عليهم صداقهن ، وألغى القوانين الجائرة الخاصة بالدين والتى صدرت فى العهد السابق . وظل الملك رئيساً للكنيسة الإنجليزية . وكان الحديث فى غير خشوع عن القربان المقدس جريمة تستحق العقاب ، بيد أن القانون نفسه أمر بأن يقدم القربان المقدس بالصورتين المعروفتين ، ونص على أن الإنجليزية هى لغة الصلاة ، ورفض المطهر والقداسات للموتى . وعاد البروتستانت الإنجليز الذين كانوا قد فروا من إنجلترا ومعهم لقاح لوثر وزوينجلى وكالفن ، وعندما اشتم مصاحون أجانب عبير الحرية الجديدة ، جاءوا معهم إلى الجزيرة المضطربة بأناجيل متعددة .

وأقبل بيتر مارتير فيرمجلى ومارتن بوسر من ستراسبورج ، وجاء برنادرينو أوكينو من أجسبورج ، وجان لاسكى من إمدن . وعبر المنكرون للتعميد والقائلون بوحدة الكنيسة القناة للتبشير فى إنجلترا بهرطقات أفزعت البروتستانت بقدر ما أفزعت الكاثوليك . وأزالت الجماهير محطمة الأصنام فى لندن الصلبان والصور والتماثيل من الكنائس ، ووعظ نيكولاس ريدلى ، عميد كلية بمبروك ، بجامعة كامبردج بعنف ضد الصور الدينية والماء المقدس ،

ولكى يتفوق عليهم جميعاً رئيس الأساقفة كرانمر « أكل اللحم علنا فى الصوم الكبير ، وهو أمر لم يشهده أحد قط من قبل مذ أصبحت انجلترا بلدا مسيحيا[1] » . ورأى المجلس الملكى أن هذا قد تجاوز الحد ، ولكن « ومرست تغلب عليه ، وأطلق الحرية للإصلاح الدينى » وأصدر المجلس النيابى (١٥٤٧) برئاسته أمراً بنزع كل صورة على جدار كنيسة أو نافذتها تشيد بذكر نبى أو حوارى أو قديس « حتى لا تبقى هناك أى ذكرى له نفسه » . وحطم معظم الزجاج الملون فى الكنائس وسحقت أغلب التماثيل ، واستبدل بالصلبان شعارات ملكية ، واتخذت الجدران المبيضة بالكلس والنوافذ ذات الزجاج الأبيض لونها من ديانة إنجلترا .

وكان فى كل محلة كفاح مرير من أجل فضة الكنيسة وذهبها ، واستولت الحكومة عام ١٥٥١ على ما تبقى . وبقيت تقريبا كاتدرائيات القرون الوسطى الفخمة .

وكان الأسقف كرانمر هو الذى تزعم حركة القيام بهذه التغيرات ، وكان خصماها الكبيران أدموند بونر ، أسقف لندن ، وستيفن جاردنر ، أسقف ونشستر ، وقد أمر كرانمر بإرسالهما إلى سجن فليت (*) . وفى غضون ذلك كان الأسقف يقوم منذ سنوات بمحاولة ليقدم فى كتاب واحد بديلا لكتاب القداس وكتاب الصلوات عند الكنيسة المغلوبة على أمرها . وساعده بيتر مارتير وعلماء آخرون ، بيد أن هذا الكتاب الأول للصلاة العامة (١٥٤٠) كان أصلا ثمرة جهد شخصى لكرانمر ، امتزجت فيه الحماسة للعقيدة الجديدة بإحساس رقيق لجمال رزين فى الشعور واللفظ بل أن ترجماته من اللاتينية فيها سحر عبقريته .

(*) سجن فى لندن أطلق عليه هـذا الاسم بسبب قربه من نهر فليت ، وهو مصب (مغطى الآن) لنهر التيمس .

ولم يكن الكتاب ثوريا تماما فقد أخذ ينهج بعض السوابق اللوثرية مثل رفض سمة التضحية فى القداس ، ولكنه لم ينكر أو يؤكد التجسيد ، واحتفظ بالكثير من الشعيرة الكاثوليكية ، وكان يمكن قس من أنصار الكنيسة الرومانية لا يدقق كثيراً أن يقبلها . ولم يقدمه كرانمر إلى المجمع الاكليروسى بل قدمه إلى المجلس النيابى ، ولم تكن هذه الهيئة العلمانية تطوى بين جوانحها أى تبكيت مصدره سلطة قضائية فى النص على شعيرة أو عقيدة دينية . وأصبح الكتاب قانونا للمملكة ، وصدرت الأوامر لكل كنيسة فى إنجلترا بالعمل به . وأعيد سجن بونروجاردنر ، وكانا قد أطلق سراحهما فى عفو عام ١٥٤٩ ، وذلك عندما رفضا الاعتراف بحق المجلس النيابى فى سن تشريع فى مجال الدين . وسمح للأميرة مارى بحضور قداس فى خلوة بجناحها .

ونشأ موقف دولى خطير أدى إلى تهدئة الجدل العنيف بين الكثالكة والبروتستانت إلى حين . وطلب هنرى الثانى ملك فرنسا الجلاء عن بولونيا ، وعندما رفض طلبه أعد لحصارها ، والحق إن مارى ستيورات ، ملكة الاسكتلنديين ، وكانت وقتذاك فى الخامسة من عمرها وتقيم فى فرنسا ، كانت حرية بأن تدخل اسكتلندة فى الحرب . وعندما علم سومرست أن الاسكتلنديين يتسلحون ويثيرون فتنة فى إيرلندة قاد قوة عبر بها الحدود وهزمهم فى بنكى كليو (١٠ سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وكانت الشروط التى عرضها على الاسكتلنديين سخية وتدل على بعد النظر : لن يتعرض الاسكتلنديون إلى التفريط فى حريتهم أو مصادرة أملاكهم ، وتتحد اسكتلندة وإنجلترا فى « إمبراطورية بريطانيا العظمى » . ولكل أمة أن يكون لها حكم ذاتى تطبق فيه قوانيها الخاصة ، ولكن كلا البلدين تحكمهما ، بعد الحكم الجارى ، ذرية ملكة الاسكتلنديين ، وكان هذا على وجه الدقة الاتحاد الذى تم فى عام ١٦٠٣ ، اللهم إلا إذا استثنينا أنه يسر عودة الكاثوليكية

إلى إنجلترا وتواصلها فى اسكتلندة : ورفض الكثالكة فى اسكتلندة المشروع خشية أن تصل عدوى البروتستانتية الإنجليزية إلى بلادهم ، وإلى جانب هذا كان النبلاء الاسكتلنديون يتلقون مرتبات من الحكومة الفرنسية ، وكانوا يرون أن عصفوراً فى اليد خير من عشرة على الشجرة .

وأحبطت مساعى سومرست فى سبيل السلام وواجه الحرب مع فرنسا ، وجاهد أن يرسى دعائم مصالحة بين عقائد لا تعرف المصالحة فى الوطن ، وترامى إلى أسماعه دقات متجددة لطبول ثورة زراعية فى إنجلترا ، فشرب كأس السلطة حتى الثمالة عند ما دبر شقيقه مؤامرة للإطاحة به . ولم يقنع توماس سيمور بأن يكون اللورد أمير البحار وعضو المجلس الخاص بل كان يريد أن يصبح ملكاً . فتودد إلى الأميرة مارى ثم إلى الأميرة اليزابث ، ولكن عبثاً . وتلقى مالا مسروقاً من دار السكة وأسلاباً من القراصنة الذين سمح لهم بالدخول فى القناة ، وعندما حصل على الأموال اللازمة حشد مخازن سرية للأسلحة والذخيرة . واكتشفت مؤامرته ، واتهمه إيرل وارويك وإيرل سوثهامبتون ، وأدانه مجلسا البرلمان بالإجماع تقريباً ، وحكم عليه فى ٢٠ مارس سنة ١٥٤٩ بالإعدام ، وحاول سومرست أن يحميه ، ولكنه فشل ، وسقطت وضاعت هيبة الحامى بسقوط رأس أخيه :

وألحقت ثورة كيت الخراب الشامل بسومرست . وأوضحت تلك الثورة مدى ما تتسم به من شـذوذ ظاهر ، فبينما كانت ثورة الفلاحين فى ألمانيا بروتستانتية ، كانت فى إنجلترا كاثوليكية ، وفى كل حالة كان الدين مظهراً للاستياء من الحالة الاقتصادية ، وفى إنجلترا كان المظهر كاثوليكياً لأن الحكومة كانت وقتذاك بروتستانتية . وكتب فرود البروتستانتى يقول : « فى التجربة التى خاضها فقراء المزارعين كانت زيادة معاناة الأشخاص نتيجة رئيسية للاصلاح الدينى(٢) » .

ومما يفاخر به رجال الدين البروتستانت فى هذا العهد — كرانمر ولاتيمر وليفر كراولى ، أنهم استنكروا الاستغلال الشديد للفلاحين ، ولقد ندد سومرست فى غضب شديد باغتصاب الملاك الجدد « الذين برزوا من الحضيض » لثروة المدينة(٣) .

ولم يكن فى وسع المجلس النيابى أن يفكر فى وسائل علاج أكثر حكمة من إجازة قوانين صارمة ضد التسول ، وأن يوجه الكنائس بأن تتولى جمع تبرعات للفقراء كل أسبوع : وأرسل سومرست لجنة تتقصى الحقائق عن الأراضى المسورة والإيجارات المرتفعة ، وقوبلت بمقاومة مستورة حيناً أو صريحة حيناً آخر من ملاك الأراضى ، وأرهب المستأجرون إلى حد العمل على إخفاء أخطائهم ، ورفض المجلس النيابى الأخذ بالتوصيات المتواضعة للجنة وكان يمثل الأعيان فيه ملاك المناطق الزراعية . وافتتح سومرست محكمة خاصة فى داره لسماع شكاوى الفقراء ، وانضم عدد من النبلاء ، أخذ يتزايد يوماً بعد يوم ، ويتزعمهم جون دولى ، إيرل أف وارويك ، إلى حركة تستهدف خلعه :

ولكن الفلاحين كانوا وقتذاك غاضبين بسبب الأخطاء المتراكمة وفشل القضايا المرفوعة لرد الحيف ، فانفجروا فى ثورة امتدت من أقصى إنجلترا إلى أدناها ، وثارت أولا سومرستشاير ثم ويلتز وجلوسستر شاير ودورست وهامبشاير وبركس واكسفورد وبكنجهام فى الغرب كورنوول وديفون ، وفى الشرق نورفولك وكنت :ونظم روبرت كنت وهو من صغار ملاك الأراضى فى نورويتش ، الثوار وقبض على زمام الحكم البلدى وأقام كومونا للفلاحين تولى حكم المدينة وما وراءها شهراً : وضرب كنت مخيماً عسكر فيه ١٦٫٠٠٠ رجل ، وهناك كان يجلس يومياً تحت شجرة سنديان للحكم بين ملاك الأراضى المذنبين الذين قبض عليهم الفلاحون . ولم يكن متعطشاً للدماء ، فالذين أدانهم وحكم عليهم سجنوا وقدم إليهم الطعام . ولم يكن يقيم وزناً كبيراً لحقوق

الملكتة وصكوكها وأمر رجاله بأن ينقبوا فى الأراضى الريفية المجاورة وأن يقتحموا المنازل فى الضياع ، ويصادروا كل الأسلحة ويسوقوا كل الماشية ، ويستولوا على كل المؤون حيثما وجدت لصالح الكومون . أما الأغنام ، وهى أكبر خصوم للفلاح فى الانتفاع بالأرض ، فقد جمع منها ٢٠٠٠٠ رأس ، ووزعت للاستهلاك فى كثير من السرف ، « عجول لا تحصى وبجع وايلات وبط وغزلان وخنازير . ومع ذلك فقد حافظ كت وسط هذه الوليمة على نظام عجيب ، بل وسمح لوعاظ بدعوة الرجال إلى التخلى عن الثورة . وشعر سومرست بكثير من التعاطف مع الثوار ، ولكنه اتفق الرأى مع واروبك على تشتيتهم ، لئلا يهدم البناء الاقتصادى بأسره فى الحياة الإنجليزية . وأنفذ واروبك مرة أخرى لقتالهم ومعه جيش كان قد حشد حديثاً للقتال فى فرنسا . وعرض على الثوار منحهم عفوا عاما ، إذا عادوا إلى بيوتهم وآثركت القبول ، بيد أن بعض المتهورين رأوا حسم الأمر بالمعركة ، فأذعن كت لهم . وتقررت النتيجة يوم ١٧ أغسطس سنة ١٥٤٩ ، وانتصر تكتيك واروبك ، وقتل ٣٥٠٠ ثائر ، ولكن عندما استسلم الباقون قنع واروبك بشنق تسعة ، وأرسل كت وأحد أشقائه إلى السجن فى لندن ووصلت أنباء الهزيمة إلى جماعات الثوار الأخرى فخارت عزيمتهم ، ووضعت جماعة إثر أخرى أسلحتها ، بعد أن وعدت بالحصول على عفو عام . واستخدم سومرست نفوذه لإطلاق سراح معظم الزعماء وبقى أشقاء كت على قيد الحياة إلى حين .

واتهم الحامى بأنه شجع على الثورة بتعاطفه الصريح مع الفقراء ، ووصم بالفشل فى الشئون الخارجية لأن فرنسا كانت وقتذاك تحاصر بولونيا . واتهم بحق بالسماح بالفساد بين موظفى الحكومة وتخفيض قيمة العملة ومضاعفة ثروته وبناء بيت سومرست الفخم ، وسط الظروف التى أشرفت فيها الأمة على الإفلاس . وتزعم واوروبك وسوثهامبتون حركة لإقصائه عن مقعده ،

وكان معظم النبلاء على استعداد للتغاضى عن ثروته ، ولكنهم لن يغفروا له أبدا عطفه على فلاحيهم ، فانتهزوا الفرصة للانتقام . وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٥٤٩ سيق الدوق أف سومرست باعتباره سجينا فى موكب اخترق شوارع لندن وسجن فى البرج .

٢ — حماية وارويك (١٥٤٩ — ٥٣)

كان أعداء سومرست رفيقى الحاشية بمقاييس ذلك العهد . وحرم من الأملاك التى اكتسبها إبان وصايته على العرش ، وأطلق سراحه يوم ٦ فبراير سنة ١٥٥٠ ، واسترد عضويته فى المجلس الملكى فى مايو : ولكن وارويك كان وقتذاك حامى المملكة .

وكان مكيافيليا صريحاً ، وعلى الرغم من أنه كان ينزع فى أعماق نفسه إلى الكاثوليكية إلا أنه سلك نهجاً بروتستانتيا ، لأن خصمه سوثهامبتون كان الزعيم الذى ارتضاه الكاثوليك لهم ، وكان أغلب النبــلاء مرتبطين ماليا بالعقيدة الجديدة . وقد تعلم جيدا فن الحرب ولكنه أدرك أنه لن يستطيع أن يحتفظ ببولونيا أمام فرنسا التى تملك ضعف موارد إنجلترا ، معتمدا على حكومة مفلسة وشعب معدم ، وسلم المدينة إلى هنرى الثانى ووقع معاهدة صلح مهينة كان لا بد منها (١٥٥٠) .

وفى ظل سيطرة ملاك الأراضى من النبلاء أو العامة وافق المجلس النيابى (١٥٤٩) على قانون يعاقب بشدة على ثورة الفلاحين . وأيد قانون صريح وجود الأراضى المسورة ، وألغيت الضرائب التى كان سومرست قد فرضها على الأغنام والصوف لكى تفتر همة الناس فى إقامة الحظائر . ونص القانون على عقوبات صارمة توقع على العمال الذين يتحدون لرفع أجورهم(٤) ، وأعلن عدم شرعية الاجتماعات التى تعقد لمناقشــة تخفيض الإيجارات أو الأسعار ، ومصادرة ممتلكات الأشخاص الذين يحضرونها . وشنق روبرت

كت وأخوه ، واشتد الفقر ، بيد أن دور البر التى اكتسحتها الثورة الدينية لم تنشأ دور بدلا منها ، وأصبح المرض متوطنا ، ولكن المستشفيات كانت مهجورة . وتصور الناس جوعا ، ولكن العملة خفضت قيمتها مرة أخرى وارتفعت الأسعار . ثم إن ملاك الأراضى فى إنجلترا الذين كانوا أقوياء فى يوم من الأيام أخذوا يهلكون، وكان أفقر الفقراء يغرقون فى بحر الهمجية[٥]. وكانت الفوضى الدينية لا تقل عن الفوضى الاقتصادية ، وظلت أغلبية الناس كاثوليكية[٦]، بيد أن انتصار وارويك على سوثهامبتون تركهم بلا قائد وشعروا بضعف موقف الذين يظاهرون الماضى . وأدى انهيار ساطة القساوسة الروحية والأدبيـــة ، وكذلك عدم استقرار الحكومة وفسادها إلى السماح لا بازدياد الفجور فحسب ، ولكن إلى استفحال الهرطقة ، بصورة أفزعت الكثالكة والبروتستانت على السواء . ووصف جون كليمنت (١٥٥٦) « الأنواع العجيبة من الطوائف التى احتشدت فى كل مكان لا من أنصار البابوية فحسب . . . ولكن من الأريوسيين والمنكرين للتعميد وكل صنوف الهراطقة الآخرين أيضاً . . . بعضهم ينكر أن الروح القدس هو الرب ، والبعض ينكر الخطيئة الأولى ، والبعض الآخر ينكر القدر . . . . وعدد لا يحصى من أمثال هؤلاء ، يقصر بنا المقام عن ذكرهم[٧] . وكتب روجر هتشنسون (حوالى عام ١٥٥٠) عن « الصدوقيين والفاسقين (أحرار الفكر) ، الذين يقولون : « إن الشيطان » ليس إلا . . . غرام دنس بالجسد . . . وأنه ليس هناك موضع للطمأنينة أو العذاب بعد هذه الحياة الدنيا ، وأن الجحيم ليس إلا ضميراً يائساً يعذب صاحبه ، وأن الجنة ضمير مبتهج ساكن مرح[٨] » .

وتحدث جون هوبر ، أسقف جلوسستر البروتستانتى فقال : « هناك من يقول إن روح الإنسان ليست أفضل من روح حيوان ، وأنها فانية وهالكة ، وهناك أشقياء يتجاسرون فى اجتماعاتهم على القول بأن

المسيح ليس هو المخلص لنا ، بل يذهبون إلى أن الطفل المبارك موذ ومحتال[٩] » .

وأفاد الناس من الحرية التى منحها لهم سومرست فطعن جناح متهور من البروتستانتية فى الدين القديم طعنا قاسيا وتهكم طلبة جامعة أكسفورد بالقداس بمحاكاته فى مسرحياتهم الهزلية ، ومزقوا كتب القداس إربا ، واختطفوا الخبز المقدس من المذبح ووطأوه بالأقدام . وأطلق وعاظ لندن على هؤلاء القساوسة اسم : « عفاريت بغى بابل » — أى البابا[١٠] . والتقى رجال الأعمال فى مؤتمرات بكاتدرائية سانت بول ، واجتمع هناك الشبان من ذوى النخوة وقاتلوا وقتلوا . وكانت الحماية الجديدة وقتذاك بروتستانتية على التحقيق . وعين المصلحون الديليون فى أسقفيات بشرط أن يحولوا جانبا من دار الأسقفية إلى رجال الحاشية الذين كان لهم الفضل فى تعيينهم[١١] ، وقضى المجلس النيابى (١٥٥٠) بإزالة كل اللوحات والتماثيل من أى كنيسة فى إنجلترا ما عدا « الصور التذكارية للملوك أو النبلاء الذين لم يسلكوا قط فى عداد القديسين » وأتلفت كل كتب الصلاة[١٢] ما عدا كتاب كرانمر . وصودرت أو بيعت ووهبت الثياب الكهنوتية والقباءات وكسوة المذبح ، وسرعان ما ازدانت بها بيوت النبلاء[١٣] . وأصدر المجلس أمراً بمصادرة كل آنية مخصصة للتبرعات بقيت فى الكنائس بعد عام ١٥٥٠ لصالح الخزنة . وانتزع المجلس النيابى فيما بعد للحكومة العملات التى فى صناديق التبرعات للفقراء بالكنائس[١٤] . ووجدت أموال أخرى للحكومة أو لموظفيها بإلغاء المنح الدراسية للطلبة الفقراء ومنع الأستاذيات المعانة من الدولة بالجامعات ، والتى أنشأها هنرى الثامن[١٥] . وأوصى المجلس النيابى لعام ١٥٥٢ بأن يبقى رجال الإكليروس بلا زواج ولكنه أذن لهم بالزواج إذا ثبت أن العفة تضنيهم .

وكان الاضطهاد الديني للهراطقة ، الذى قام به الكثالكة منذ عهد بعيد ، قد نهض به وقتــذاك البروتستانت فى إنجلترا ، وكذلك فى سويسرة وألمانيا اللوثرية ، وذلك بمطاردة الهراطقة والكثالكة . وأعد كرانمر بيانا بالهرطقات التى يعاقب مرتكبوها بالإعدام إذا لم يرتدوا عنها ، وتضمنت تأكيد وجود المسيح حقا فى القربان المقدس أو السيادة الكنسية للبابا ، وإنكار الوحى فى العهــد القديم ، أو الطبيعتين فى المسيح أو التزكية بالإيمان[١٦] . وذهبت جوان بوشر الكنتيــة إلى المحرقة لشكها فى تجسد الأقنوم الثانى (١٥٥٠) . وقالت لريدلى ، أسقف لندن البروتستانتى الذى توسل إليها أن تتراجع عما تقول : « لقد أحرقتم آن أسكيو منذ عهد غير بعيد من أجل قطعة من الخبز (لإنكارها التجسد) ، ومع ذلك حدث أن آمنتم بالعقيدة التى أحرقتموها من أجلها ، وأنتم سوف تحرقوننى الآن من أجل قطعة من اللحم (تشير إلى العبارة الواردة فى الإنجيل الرابع . « لقد صنعت الكلمة لحما ، وسوف تؤمنون بهذا أيضا آخر الأمر[١٧] » . ولم يحرق فى عهد إدوارد إلا هرطيقان ، ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من الكثالكة سجنوا لحضورهم القداس أو لانتقادهم علنا العقيدة المحافظة المقبولة[١٨] . وأقيل القساوسة الكاثوليك المتشبثون بآرائهم من مناصبهم وأرســل بعضهم إلى سجن البرج[١٩] ، وعرض على جاردنر ، وكان لايزال هناك ، الحرية إذا وافق على التبشير بالعقيدة التى يقول بها أنصار الإصلاح الدينى . وعندما رفض نقل إلى « مسكن أحقر » فى البرج وحرم من الورق والقلم والكتب . وفى عام ١٥٥٢ أصدر كرانمر كتابه الثانى عن الصلاة العامة وفيه أنكر وجود المسيح حقا فى القربان المقدس ، ونبذ تقديم القربان المقدس بالمسيح المغالى فيه ، وراجع فى ظروف أخرى الكتاب الأول باتجاه بروتستانتى .

ووافق المجلس النيابى وقتذاك على قانون ثان بشأن التجانس ، اقتضى

أن يحضر جميع الأشخاص بانتظام وألا يحضروا سوى الصلوات الدينية التى تقام طبقاً لما ورد فى كتاب الصلاة العامة هذا ، وكل من يخالف هذا القانون ثلاث مرات ، يعاقب بالإعدام . وفى عام ١٥٥٣ أصدر المجلس الملكى اثنين وأربعين « مادة فى الدين » وضعها كرانمر وجعلها إلزامية على كل الإنجليز .

وفى الوقت الذى أصبحت فيه الفضيلة والمحافظة على العقيدة بمثابة قانون تميزت حماية وارويك بفسادها فى عصر فاسـد ، ولم يمنع هذا إدوارد الشاب المطاوع من تعيين وارويك دوقا لنورثمبرلاند (٤ اكتوبر سنة ١٥٥١) . وبعد بضعة أيام كفر الدوق عن خطيئته التى ارتكبها بتمامه بعمل من أعمال حسن التصرف — إطلاق سراح سومرست — وذلك باتهام سلفه بالقيام بمحاولة لاستعادة السلطة لنفسه . وقبض على سومرست وحوكم وأدين فى الغالب بناء على دليل قدمه سير توماس بالمر ، وزيف أمر صادر من الملك بالدعوة إلى إعدام سومرست ، وفى ٢٢ يناير سنة ١٥٥٢ لقى حتفه بشجاعة وإباء . وعندما واجه نورثمبرلاند الإعدام بدوره ، اعترف أن سومرست قد اتهم زورا بفضل وسائله ، واعترف بالمر قبل وفاته أن الدليل الذى أقسم على صحته كان من اختراع نورثمبرلاند (٢٠) .

ونادراً ما كانت الإدارة فى إنجلترا قد وصلت إلى هذا الحد من الكراهيـة ، فقد انقلب البروتستانت ضد الحامى الجديد الذى أثنوا عليه شكراً منهم لتأييده وذلك بسبب ازدياد جرائمه . وكان الملك إدوارد يقترب من الموت وقد عينت مارى تيودور بمقتضى قانون أصدره المجلس النيابى ولية للعهد إذا ظل إدوارد بلا ذرية . وإذا قدر لمارى أن تصبح ملكة فإنها سوف تنتقم فى الحال من هؤلاء الذين حولوا إنجلترا عن العقيدة القديمة . وشعر نورثمبرلاند بأن حياته معرضة للخطر . وكان عزاؤه الوحيد أن وكلاءه قد دربوا إدوارد على طاعته . وأغرى الملك المحتضر بأن يقرر التاج لليدى جين جراى ، ابنـة الدوق سفولك وحفيدة شقيقة

هنرى الثامن ، وفضلا عن هذا فإن جين كانت قد تزوجت حديثاً من ابن نورثمبرلاند . ولم يكن إدوارد قد خول مثل أبيه السلطة من المجلس النيابي لتعيين خلفه ، وكانت إنجلترا بأسرها تقريباً ترى أن ارتقاء الأميرة مارى العرش أمر لا مفر منه وعادل ، واحتجت جين بأنها لم ترغب قط فى أن تكون ملكة . وكانت امرأة نالت قسطاً غير عادى من التعليم : وكتبت باليونانية ودرست العبرية وتراسلت مع بولينجر بلغة لاتينية لا تقل جمالا عن لغته . ولم تكن قديسة ، وكان فى وسعها أن تنتقد الكثالكة بشدة ، وسخرت من التجسيد . ولكن نسب إليها من الآثام أكثر مما أثمت . وحسبت فى أول الأمر أن خطة حميها من قبيل الدعابة ، وعندما أصرت حماتها قاومت جين . وأمرها زوجها فى آخر الأمر أن تقبل العرش فأطاعت « دون أن تختار أن تعصى زوجها » كما قالت ، وأعد نورثمبرلاند وقتذاك العدة للقبض على كبار أنصار مارى وإيداع الأميرة نفسها فى البرج حيث يمكن أن تتعلم التنازل .

وأوشك الملك على نهايته فى أوائل يولية ، وسعل وبصق دماً ، وتورمت ساقاه تورماً مؤلماً ، وتفشى الطفح على جسده ، وسقط شعره ، ثم سقطت أظافره ، ولم يستطع أحد أن يجزم بالمرض الغريب الذى يعانى منه ، وراود الشك الكثيرين أن نورثمبرلاند قد سممه . وأخيراً مات إدوارد بعد أن عانى كثيراً (٦ يوليو سنة ١٥٥٣) ولم يتعد الخامسة عشرة من عمره ، وأصغر كثيراً من أن يشارك فيما ارتكب فى عهده من آثام .

وفى صباح اليوم التالى ركب نورثمبرلاند إلى هنسدون للقبض على الأميرة . بيد أن مارى هربت ، بعد أن حذرت ، إلى أصدقاء كاثوليكيين فى سفولك ، وعاد نورثمبرلاند إلى لندن دون أن يحصل على فريسته . وأقنع المجلس الخاص بالوعود أو التهديدات أو الرشاوى بالانضمام إليه فى المناداة

بجبن جراى ملكة ، وأغمى عليها ، وعند ما أفاقت ظلت تحتج على أنها لا تصلح للشرف المحفوف بالمخاطر ، الذى أكرهت عليه . وتوسل إليها أقاربها بحجة أن حياتهم تتوقف على قبولها . وفى التاسع من يوليو أقرت فى نفور أنها ملكة إنجلترا .

ولكن فى العاشر من يوليو وصلت إلى لندن أنباء تقول إن مارى قد نادت بنفسها ملكة ، وإن النبلاء فى الشمال كانوا يتقاطرون لتأييدها ، وأن قواتهم كانت تزحف على العاصمة . وحشد نورثمبرلاند سريعاً ما استطاع جمعه من جنود ، وقادهم لتقرير مصير المعركة . وأبلغه جنوده فى بورى أنهم لن يسيروا خطوة أخرى للقتال ضد عاهلتهم الشرعية . وأرسل نورثمبرلاند أخاه ، مزوداً بالذهب والجوهرات والوعد بكاليه وجينس ليرشو هنرى الثانى ملك فرنسا ، للقيام بغزو إنجلترا تتويجاً لجرائمه . وعلم المجلس الخاص بالمهمة ومنعها ، وأعلن ولاءه لمارى . وانطلق الدوق أف سفولك إلى غرفة جين وأبلغها أن حكمها الذى استمر عشرة أيام قد انتهى . فرحبت بالأنباء وسألت ببراءة هل تستطيع الآن أن تذهب إلى البيت ، ولكن المجلس ، الذى كان قد أقسم على خدمتها أمر بسجنها فى البرج . وسرعان ما سجن هناك أيضاً نورثمبرلاند وأخذ يطلب الصفح عما ارتكب ، وإن أخذ يترقب موته .

وبعث المجلس برسل ينادون بأن مارى تيودور ملكة وتلقت إنجلترا الأخبار بفرح وحشى . وظلت النواقيس تقرع والمشاعل تتوهج طوال تلك الليلة من ليالى الصيف . وجلب الناس موائد الطعام وأولموا فى الخلاء ورقصوا فى الشوارع .

وبدا أن الأمة آسفة على الإصلاح الدينى ، وأنها تتطلع بشغف إلى ماض كان فى الإمكان وقتذاك أن يعد نموذجاً ، طالما أنه لن يعود . والحق أن الإصلاح الدينى لم يظهر حتى الآن إلا جانبه المرير لإنجلترا : لم يكن تحريراً

من المذهبية ومحاكم التفتيش والطغيان ، بل كان تشهيتاً لها ، ولم يكن انتشاراً للاستنارة ، بل كان سلباً للجامعات وإغلاقاً لمئات المدارس ، ولم يكن توسعاً فى الرقة ، بل كان تقريباً قضاء على البر ، ورقعة بيضاء للجشع ، ولم يكن تخفيفاً للفقر ، بل كان سحقاً للفقراء بلا رحمة لم تعرفه إنجلترا منذ قرون — ولعلها لم تعرفه قط(٢١). وكان كل تغيير يكاد يلقى ترحيباً ما دام يؤدى إلى تخليصهم من نورثمبرلاند وطغمته .

ثم إن الأميرة مارى المسكينة ، التى ظفرت بحب إنجلترا فى الخفاء بفضل صبرها على الإذلال طوال اثنين وعشرين عاماً — هذه المرأة المهذبة سوف تكون ولا شك ملكة رقيقة .

٣ — الملكة الرقيقة (١٥٥٣ — ٥٤)

لا بد لكى نفهمها من أن نكون قد عشنا معها شبابها المأساوى الذى لم تذق خلاله قط طعما للسعادة . ولم تكن تتجاوز الثانية من عمرها (١٥١٨) ، عندما شغل أبوها بالخطايا ، وأهمل أمها المحزونة . وكانت فى الثامنة عندما طلب إعلان بطلان زواجه ، وفى الخامسة عشرة عندما افترق والداها ، وذهب كل من الأم والبنت إلى منفى منفصل . ومنعت الإبنة من الذهاب إلى أمها حتى وهى تحتضر(٢٢) . وأعلن أن مارى ابنة سفاح بعد مولد اليزابث (١٥٣٣) وجردت من لقبها كأميرة . وخشى سفير الإمبراطور أن تسعى آن بولين إلى قتل ابنة غريمتها المنافسة لها على العرش . وعندما انتقلت اليزابث إلى هاتفيلد أجبرت مارى على أن تذهب إلى هناك لخدمتها وأكرهت على أن تعيش فى « أسوأ غرفة فى البيت(٢٣) » وأخذ منها خدمها ، واستبدل بهم آخرون ، يخضعون لمس شلتون أف هاتفيلد التى قالت لها تذكرها بأنها ابنة سفاح : « لو كنت فى موضع الملك لطردتك من بيت الملك لعدم طاعتك » . وأخبرتها أن هنرى قد عبر عن عزمه على قطع رأسها(٢٤) .

وكانت مارى مريضـــة طوال ذلك الشتاء الأول الذى قضته فى هاتفيلد (١٥٣٤) ، وتحطمت أعصابها بسبب الإهانة والخوف وكادت تشرف على الموت جسما وروحا على غير كره منها . ثم رق لها الملك ومنحها بعض محبته إلى حين ، ونعمت بوضع ميسور فى باقى أيام حكمه . ولكن طلب منها أن توقع إقراراً بسيادة هنرى الكنسية وبأن « زواج أمها من قبيل سفاح ذوى القربى » وبأن ميلادها غير شرعى[٢٥] وذلك ثمنا لهذه الرقة القاسية .

وتأثر جهازها العصبى على الدوام بهذه المحن ، و « كانت عرضة لأن تشكو من قلبها[٢٦] » وظلت صحتها ضعيفة حتى آخر يوم فى حياتها . وعاودتها شجاعتها عند ما أعلن المجلس النيابى فى عهد حماية سومرست أنها ولية العهد . ولقد نشأت عقيدتها الكاثوليكية ، فى طفولتها مشبعة بحرارتها الإسبانية ، وقويت بما أثارته حياة أمها ومماتها فى نفسها من ألم ، وكانت عونا ثمينا لها فى أحزانها ، فرفضت أن تتخلى عنها عنـــد ما حومت على حافة السلطة ، وعند ما أمرها مجلس الملك أن تكف عن سماع القداس فى حجراتها (١٥٤٩) لم تذعن لأمره . وأغضى سومرست عن مقاومتها ، ولكن سومرست سقط ، وصدق أخوها الملك على الأمر ، وأرسل ثلاثة من خدمها إلى سجن البرج بسبب تجاهله (١٥٥١) ، وأخذ منها القس الذى رتل لها القداس ، ووافقت آخر الأمر على أن تكف عن ممارسة الشعيرة المحبوبة . وعندما تحطمت روحها طلبت من سفير الإمبراطور أن يدبر لها الهرب إلى القارة ، ورفض الإمبراطور الحذر أن يجيز الخطة ، وخاب فألها .

وجاءت لحظة انتصارها أخيراً عندما عجز نورثمبرلاند عن أن يجد رجلا يحارب ضدها ، ولم يطلب الذين أقبلوا مدججين بالسلاح لمناصرة قضيتها أى أجر ، بل إنهم أحضروا معهم مؤنهم ، وعرضوا عليها ثرواتهم لتمويل الحملة . وعندما دخلت لندن كملكة (٣ أغسطس سنة ١٥٥٣) هبت تلك المدينة نصف البروتستانتية للترحيب بها بالإجماع . وجاءت اليزابث تمشى على

استحياء لملاقاتها عند أبواب المدينة ، وهى تتساءل على تتمسك ضدها بالشتائم التى تعرضت لها باسم اليزابث . ولكن مارى حيتها بقبلة حارة وقبلت جميع السيدات المرافقات لأختها غير الشقيقة . وكانت إنجلترا سعيدة كما كانت عند ما ارتقى العرش هنرى الثامن وهو شاب وسيم كريم .

كانت مارى وقتذاك فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وكان الزمن القاسى قد ترك على وجهها خطوطاً تنذر بالذبول . وقلما مرت بها سنة كاملة دون أن تصاب بمرض خطير . وكانت تشكو من الاستسقاء وسوء الهضم ونوبات صداع تحطم الرأس ، وعولجت مراراً بالحجامة مما تركها عصبية شاحبة ، وأدى تكرار انقطاع الطمث عنها إلى استغراقها أحياناً فى حزن هستيرى مصحوب بخوف من ألا تحمل أبداً(٢٧) . وكان جسدها وقتذاك نحيلا هزيلا وجبينها ممتلئاً بالتجاعيد وشعرها المائل للاحمرار تتخلله شعرات بيضاء وعيناها ضعيفتين جداً إلى حد أنها لم تكن تستطيع القراءة إلا إذا أمسكت بالصحيفة قرب وجهها . وكانت تقاطيعها واضحة ، تكاد تشبه تقاطيع الرجال ، وكان صوتها عميقاً كصوت الرجل ، وقد وهبتها الحياة كل ما فيها من وهن وحرمتها من المفاتن ومن الأنوثة . وكانت لديها بعض المواهب الأنثوية . فكانت تحيك فى جلد وتطرز بمهارة وتعزف على العود ، وأضافت إلى هذه المواهب معرفة باللغات الإسبانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية . وكان يمكن أن تكون امرأة صالحة لو لم تلحقها لعنة اليقين اللاهوتى والسلطة الملكية . وكانت أمينة إلى درجة البساطة ، عاجزة فى مجال الدبلوماسية ومتلهفة إلى درجة يرثى لها لأن تحب وتكون محبوبة . وكانت تتعرض لسورات غضب ولها لسان سليط . وكانت عنيدة ولكنها لم تكن متكبرة ، وأدركت قصور قدراتها الذهنية وأصاخت السمع للنصيحة فى تواضع . ولم تكن تلين لها قناة إذا كان الأمر يتعلق بعقيدتها فحسب ، وفى غير هذه الحالة كانت حليمة حنوناً وحرة الفكر مع التعساء ، وتواقة إلى رفع الحيف الذى تسببت فيه

أخطاء القانون ، وكثيراً ما زارت بيوت الفقراء وهى متنكرة وجلست وتحدثت مع ربات البيوت وسجلت مذكرة بالحاجات والمظالم وقدمت كل ما فى وسعها من مساعدة(٢٨) . وأعادت إلى الجامعات الهبات التى اختلسها منها أسلافها .

وظهر أحسن جانب من خلقها فى التسامح النسبى فى أول عهدها ، فهى لم تطلق سراح جاردنر وبونر وغيرهما ممن سجنوا لرفضهم قبول اعتناق البروتستانتية فحسب ، بل إنها صفحت تقريباً عن كل من حاولوا إبعادها عن العرش ، ومهما يكن من أمر فإنها أجبرت بعض هؤلاء ؛ مثل الدوق أف سفولك ، على دفع غرامات باهظة للخزانة ، ثم خفضت الضرائب تخفيضاً جوهرياً بعد تقديم هذه المساعدة إلى الدخل . ومنحت جوازات أمان لبيتر مارتير وغيره من البروتستانت الأجانب لكى يغادروا البلاد . وعقد مجلس الملكة محاكمة عاجلة لنورثمبرلاند وستة آخرين تآمروا على القبض على مارى ، وتوجوا جين جراى ، وحكم على السبعة جميعا بالموت . وأبدت مارى رغبتها فى الصفح عن نورثمبرلاند ، ولكن سيمون رينار سفير الإمبراطور وقتذاك أثناها عن عزمها ، وقام الثلاثة الذين لم يصفح عنهم جميعا باعتناق عقيدة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى آخر لحظة . ووصفت جين جراى الحكم بالعدل والاعترافات بالجبن(٢٩) .

وكان من رأى مارى أن تطلق سراحها ، ولكنها أذعنت لآراء مستشاريها إلى حد بعيد وأمرت بأن تبقى طليقة من كل قيد فى الاعتقال داخل أراضى سجن البرج(٣٠) .

وأصدرت الملكة فى ١٣ أغسطس إعلانا رسميا بأنها لن « تكره الضمائر أو تلزمها » بشىء فى مسألة المعتقد الدينى(٣١) ، وكان هذا أحد الإعلانات الأولى فى التسامح الدينى تصدره حكومة حديثة . وكانت تأمل فى براءة أن

تحول البروتستانت بالحجة فنظمت مناظرة عامة بين علماء اللاهوت المتعارضين فى الرأى ، ولكنها تبخرت فى جدل مرير عقيم . وبعد ذلك بوقت قصير قذف واعظ الأسقف بونر بخنجر انطلق من جمهور استاء من وعظه الكاثوليكى ، وأنقذه من الموت اثنان من رجال الدين البروتستانت(٣٢) ، وراع مارى تسامحها فأمرت (١٨ أغسطس سنة ١٥٥٣) بعدم التصريح بعظات تتعلق بالعقائد إلا فى الجامعات ، وذلك إلى أن يتيسر اجتماع المجلس النيابى وينظر فى المشكلات التى أثارها النزاع بين العقائد . وأمر كرانمر ، وكان لايزال رئيسا للأساقفة ، بملازمة قصره فى لامبث ، فرد على ذلك بمهاجمة القداس ووصفه بأنه « كفر بغيض » ، وحكم عليه هو ولاتيمر بالسجن فى البرج (سبتمبر سنة ١٥٥٣) . أما ريدلى أسقف لندن الذى كان قد وصف مارى واليزابث معا بأنهما ابنتا سفاح فكان قد ذهب إلى سجن البرج قبل ذلك بشهرين . وعلى الجملة فإن سلوك مارى فى هذه الشهور الأولى من حكمها فاق فى اللين والتسامح سلوك غيرها من عظماء الحكام فى عصرها .

وكانت المشكلات التى واجهتها حرية بأن تقهر امرأة تفوقها كثيراً فى الذكاء والفطنة . وصدمت بالارتباك والفساد السائدين فى الإدارة وأمرت بوقف الفساد ، غير أنه أخفى رأسه ولم ينقطع . وضربت مثالا حسناً بتخفيض نفقات الأسرة الملكية ، وتعهدت بتثبيت قيمة العملة ، وتركت انتخابات المجلس النيابى حرة لم تتأثر بأى نفوذ ملكى . وكانت الانتخابات الجديدة « أعدل انتخابات حدثت منذ سنوات(٣٣) » ، ولكن تخفيضها للضرائب ترك دخل الحكومة أقل من مصروفاتها ، ولكى تحصل على الفرق فرضت ضريبة صادر على القماش وضريبة وارد على الأنبذة الفرنسية وأدت هذه الإجراءات التى كان ينتظر أن تساعد الفقراء إلى نكسة تجارية . وحاولت أن توقف نمو الرأسمالية بتحديد عدد ما يملكه أى فرد بنول أو اثنين . ونددت بـ « القماشين الأغنياء » بسبب دفعهم أجوراً منخفضة وحظرت دفع

obeikandi.com

الأجور عيناً(٣٤) ولكنها لم تجد فى حاشيتها رجالا يملكون القوة والكمال اللازمين لإنجاز إرادتها الطيبة ، وتغلبت القوانين الاقتصادية على أهدافها .

بل إنها قوبلت بعقبات اقتصادية قاسية حتى أمور الدين . ولم تكن هناك أسرة لها نفوذ فى إنجلترا لا تحتفظ بأملاك انتزعتها من الكنيسة(٣٥) ، وعارضت هذه الأسر بالطبع أى عودة للعقيدة الرومانية . وكان البروتستانت أقلية من حيث العدد وأقوياء بفضل ما لديهم من مال ، وكانوا بذلك فى موقف يسمح لهم بأن يمهدوا فى أية لحظة أسباب الثورة التى تضع اليزابث البروتستانتية على العرش .

وكانت مارى تتلهف على إعادة حق الكثالكة فى العبادة طبقاً لشعيرتهم ، ومع ذلك فإن الإمبراطور الذى ظل يحارب البروتستانتية اثنين وثلاثين عاما حذرها وطلب منها أن تتحرك ببطء ، وأن تقنع بترديد القداس سراً لنفسها وفى محيطها المباشر . ولكن شعورها نحو دينها كان عميقاً ولا تستطيع أن تكون سياسية فيما يتصل به . وتعجب الجيل الذى ينزع إلى الشك الذى نشأ فى لندن من كثرة صلواتها وحرارتها ، ولعل السفير الإسبانى اعتقد أنها تطالب أمراً إدّا عند ما سألته أن يركع بجوارها ويطلب الهداية من الله . وشعرت بأن لها رسالة مقدسة تستعيد بها العقيدة التى أصبحت عزيزة عليها لأنها قاست من أجلها . وبعثت برسول إلى البابا تطلب منه أن يرفع التحريم الذى فرضه على إقامة الصلوات بإنجلترا ، ولكن عند ما أبدى الكاردينال بول رغبته فى الحضور إلى إنجلترا قاصداً رسولياً ، اتفقت مع شارل على أن الوقت لم يحن بعد للقيام بمثل هذه الحركة الجريئة .

ولم يكن المجلس النيابى الذى اجتمع فى ٥ أكتوبر سنة ١٥٥٣ مجدياً بالمرة . فقد وافق على الغاء كل تشريع يتعلق بالدين ، صدر فى عهد إدوارد ، وخفض العقوبات المنصوص عليها فى قوانين هنرى الثامن وإدوارد السادس إلى ما كانت عليه من قبل . وأبلغ الملكة فى تلطف أن « عدم شرعية

النسب المتعلقة بشخصك الأمثل ، قد ألغى وأنها لم تعد ابنة سفاح ، ولكنه أبى أن ينظر فى إعادة أملاك الكنيسة إليها وقاوم أى تلميح إلى أن سيادة البابا يجب أن يعترف بها ، وترك هذا مارى رئيسة للكنيسة الإنجليزية رغم أنفها . وبمقتضى هذه السلطة المخولة لها استبدلت بالأساقفة البروتستانت الأساقفة الكاثوليك الذين كانوا قد أقصوا عن مناصبهم ، وعاد بونر أسقفاً للندن وجاردنر أسقفاً لونشستر ومشيرا مقرباً للتاج . وطرد القساوسة المتزوجون من أبرشياتهم . وسمح بإقامة القداس مرة أخرى ثم شجع ، (ويقول مؤرخ بروتستانتى) : « إن اللهفة التى أبدتها البلاد الإفادة بوجه عام من الإذن بإعادة الشعيرة الكاثوليكية تدل بلا شك على أن الشعور العام كان مع الملكة(٣٦) فيما عدا لندن وبضع مدن كبيرة » . وأعيدت العبادة الكاثوليكية إلى ما كانت عليه تماما بمقتضى مرسوم صدر فى ٤ مارس سنة ١٥٥٤ . وعدت الهرطقات الأخرى غير شرعية وحرم كل وعظ بروتستانتى أو نشرة بروتستانتية .

وكان انزعاج الأمة بعودة التذبذب اللاهوتى أقل كثيراً من انزعاجها بخطط زواج مارى . كانت تخشى الزواج من الناحية الدستورية ، ولكنها واجهت المحنة أملا فى أن تنجب وريثا يحول دون ارتقاء اليزابث البروتستانتية العرش : وادعت مارى أنها عذراء ، والراجح أنها كانت كذلك ، ولعلها لو كانت قد أثمت هوناما لكانت أقل كآبة وتوترا ويقينا . وأوصى مجلسها باختيار إدوارد كورتناى حفيد إدوارد الرابع ، ولكن طرق عيشه المتبذلة لم تصادف هوى فى نفس مارى ، وعندما رفضته دبر أن يتزوج اليزابث ، ويخلع مارى ويولى اليزابث على العرش ويحكم إنجلترا عن طريقها — ولم يحلم قط بضآلة فرصته فى السيطرة على تلك السيدة المسترجلة . وعرض شارل الخامس على مارى الزواج من ابنه فيليب الذى كان يوشك أن يوصى له بكل شيء سوى اللقب الإمبراطورى ، وتعهد

بتقديم الأراضي المنخفضة لأى ولد يكون ثمرة لهذا الزواج . وتهللت مارى عندما خطر لها أن زوجها سيكون حاكما لإسبانيا والفلاندرز وهولندة ونابلى والأمريكتين ، وتدفقت دماؤها نصف الإسبانية ساخنة فى عروقها وهى تتوقع إنشاء اتحاد سياسى ودينى بين إنجلترا وإسبانيا . وأشارت فى تواضع إلى أن سنها الأكبر — أكبر من فيليب بعشر سنوات — تقف عائقاً ، وخشيت ألا تكفى مفاتنها الذابلة لإرضاء حيويته وشبابه أو خياله ، إنها لم تكن واثقة أنها سوف تعرف كيف تطارحه الغرام(٣٧) . وكان فيليب من ناحيته يشعر بالنفور فقد أبلغه وكلاؤه الإنجليز أن مارى كانت « قديسة كاملة » وأنها ترتدى ملابس قبيحة(٣٨) ، أفلا يمكن أن يوجد شىء أكثر إغراء بين الأسر المالكة فى أوروبا ؟ وأقنعه شارل بالإشارة إلى أن الزواج سوف يتيح لأسبانيا حليفاً قوياً ضد فرنسا وعوناً ثميناً فى الأراضى المنخفضة التى كانت مرتبطة تجارياً بإنجلترا . ولعل البروتستانتية فى ألمانيا يمكن قمعها بعمل موحد من إسبانيا وفرنسا وإنجلترا باعتبارها دولا كاثوليكية ؛ ثم إن المصاهرة بين آل هابسبورج وآل تيودور يؤلف قوة قادرة على منح أوربا الغربية سلاما إجبارياً يدوم جيلا .

وأدرك مجلس الملكة والشعب الإنجليزى قوة هذه الاعتبارات ولكنهم خشوا أن يؤدى الزواج إلى تحويل إنجلترا إلى بلد تابع لإسبانيا ويورط إنجلترا فى الحروب المتكررة مع فرنسا . وواجه شارل الموقف بإجراء مضاد عرض باسم ابنه عقد زواج بمقتضاه لا يحمل فيليب لقب ملك إنجلترا إلا فى حياة مارى ولها أن تحتفظ وحدها بالسلطة الملكية الكاملة على الشئون الإنجليزية ولها أن تشارك فيليب فى جميع ألقابه ، وإذا مات دون كارلوس (ابن فيليب من زواج سابق) دون أن يعقب ذرية ترث مارى أو ابنها الإمبراطورية الإسبانية وعلاوة على هذا أضاف الإمبراطور الداهية أن لمارى الحق فى أن تتلقى مدى الحياة ٦٠٫٠٠٠ جنيه من

بالموارد الامبراطورية ، وبدا هذا كله عرضاً سخياً جداً ، وصدق المجلس الإنجليزى على الزواج مع تعديلات يسيرة فى النصوص

وأخذت مارى ، على الرغم من حيائها المتواضع تتطلع فى لهفة إلى المستقبل فكم طال انتظارها لعاشق !

ولكن الشعب الإنجليزى استاء من اختيارها ، فالأقلية البروتستانتية التى كانت تصبر على الاضطهاد ، آملة فى أن تخلف اليزابث قريباً مارى العاقر الضعيفة خشيت على حياتها إذا وقفت قوة إسبانيا بجانب مارى فى إعادة الكاثوليكية بالقوة ، وارتجف النبلاء الذين اغتنوا بضم الأملاك الكنسية عندما خطر لهم أنهم سوف يخرجون ما فى بطونهم . بل إن الإنجليز الكاثوليك اعترضوا على وضع أجنبى قاس على العرش . وهو ولا شك سوف يستخدم إنجلترا لتحقيق أغراضه الأجنبية . وارتفعت أصوات الاحتجاج من كل مكان فى البلاد ، وسرى الذعر فى مدينة بلايماوث ، فطلبت من ملك فرنسا أن يضعها تحت حمايته . ووضع أربعة نبلاء خططاً لثورة تبدأ فى ١٨ مارس سنة ١٥٥٤ ، فكان على الدوق أف سفولك (والد جين جراى الذى صدر العفو عنه) أن يحدث ثورة فى وارويكشاير وعلى سير جيمس كروفت أن يتزعم مستأجريه الولزيين ، وعلى سير بيتر كارو أن يثير ديفونشاير ، وعلى سير توماس ويات الصغير أن يقود ثورة فى كنت . وكان ويات الكبير — الشاعر — قد استولى على مجموعة من أراضى الكنيسة — كره ابنه أن يسلمها . وأخطأ المتآمرون بأن أسروا بخططهم لكورتناى ، وكانت مهمته تنحصر فى ضمان اشتراك اليزابث معهم . وكان الأسقف جاردنر يراقب كورتناى باعتباره خاطباً منبوذاً لمارى يتلهف على الانتقام ، فأمر بالقبض عليه ، وأفشى كورتناى أسرار المؤامرة ، بتأثير التعذيب على الأرجح .

وآثر المتآمرون أن يلاقوا حتفهم فى المعركة بدلا من المقصلة فخفوا

سريعاً إلى الأسلحة واشتعلت نيران الثورة فى أربعة أقطار فى الحال (فبراير سنة ١٥٥٤) ؛ وقاد ويات جيشاً قوامه ٧٫٠٠٠ رجل وزحف نحو لندن ، وبعث بنداء إلى كل المواطنين أن يمنعوا انجلترا من أن تصبح إقطاعية لإسبانيا ، وبدأ الجانب البروتستانتى من أهالى لندن فى وضع خطة لفتح الأبواب لويات ، وتردد مجلس الملكة فى أن يرتبط بشىء ، ولم يحشد جندياً واحداً للدفاع عنها ، ولم تستطع مارى أن تدرك لماذا ترفض البلاد التى رحبت كثيراً بارتقائها العرش أن تتمتع بالسعادة وتحقيق أمانيها التى حلمت بها طوال سنوات التعاسة العديدة . وإذا لم تمسك بزمام الأمور فى يديها بعزم غير عادى فإن حكمها وحياتها سوف ينتهيان وشيكاً . ولكنها ذهبت بنفسها إلى جلدهول وواجهت اجتماعاً ثائراً كان يتباحث إلى أى جانب ينحاز . وقالت للجميع إنها على استعداد تام لأن تتخلى عن فكرة الزواج الإسبانى إذا كانت هذه رغبة العموم ، وقالت حقاً « إنى على استعداد لأن أمسك عن الزواج طوال حياتى » ولكنها لن تسمح فى الوقت نفسه أن يتحول موضع الخلاف إلى « عباءة إسبانية » لثورة سياسية . وقالت : « إنى لا أستطيع أن أقول كيف تحب الأم طفلها بفطرتها لأنى لم أكن يوماً أماً ، ولكن لا شك أنه إذا كانت الملكة يمكن أن تحب رعاياها حباً طبيعياً وحاراً كما تحب الأم طفلها ؛ فإنى أؤكد أنى باعتبارى سيدتكم ومولاتكم ، أحبكم حباً حاراً رقيقاً وأعطف عليكم(٣٩) » . وقوبلت كلماتها وروحها بتصفيق حار ، وتعهد الجمع بتأييدها . واستطاع وكلاء الحكومة ، فى يوم تقريباً ، أن يحشدوا ٢٥٫٠٠٠ رجل مسلح وقبض على سفولك وفركروفت وكاريو إلى مخبأ . أما ويات فقد قاد ، بعد أن تخلى عنه زملاؤه على هذا النحو ، قوة صغيرة قاتل بها فى شوارع لندن ، وشق طريقه تقريباً إلى قصر الملكة فى هويتهول . وتوسل الحراس إلى مارى أن تهرب ، ولكنها رفضت وأخيراً غلب رجال ويات

على أمرهم فاستسلم بعد أن وهن منه الجسد والروح وأخذ إلى سجن البرج وتلمست مارى عبير الأمان مرة أخرى ولكنها لم تعد قط الملكة الرقيقة .

٤ — « مارى الدموية » : ١٥٥٤ — ٥٨

كثيراً ما أدان مستشاروها سياستها القائمة على الصفح . وقد لامها الإمبراطور وسفيره على السماح بالحياة بل وبالحرية لأشخاص تآمروا ضدها وسوف يكونون أحراراً لتكرار هذا — وسئلت كيف يستطيع فيليب أن يأمن على نفسه فى بلد ترك فيه أعداؤه يمرحون بلا عائق ليدبروا مؤامرة لاغتياله ؟ وكان من رأى الأسقف جاردنر أن الرحمة بالأمة تتطلب إعدام الخونة . وتملك الذعر الملكة فمالت إلى العمل بآراء مستشاريها . وأمرت بإعدام الليدى جين جراى التى لم ترغب قط فى أن تكون ملكة ، وزوج جين ، الذى أراد أن يكون ملكاً . وانطلقت جين ، وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، إلى حتفها وهى تؤمن بأن هذا قدرها ، دون أن تبدى احتجاجاً أو تذرف دموعاً (١٢ فبراير سنة ١٥٥٤) . وقطع رأس والدها سفولك وشنق مائة من صغار الثوار . وأبقى على حياة بعض المتآمرين إلى حين أملا فى أن ينتزع منهم اعترافات مفيدة ، واتهم ويات فى مبدأ الأمر إليزابث بأنها على علم بالخطة ، ولكن عندما وقف على المنصة (١١ ابريل سنة ١٥٥٤) برأها من كل علم بها . وأطلق سراح كورتناى بعد أن سجن عاماً وأقصى عن البلاد . وأشار شارل على مارى بإعدام كورتناى وإليزابث باعتبارهما مصدر تهديد دائم لحياتها . وأرسلت مارى إلى إليزابث بالحضور واحتفظت بها فى قصر سانت جيمس شهراً ثم سجنتها شهرين فى البرج . وحثها رينارد على تنفيذ حكم الإعدام فيها فوراً ، ولكن مارى اعترضت وقالت إنه لم يثبت اشتراك إليزابث فى الجريمة(٤٠) ، وظلت حياة إليزابث خلال هذه الشهور المشئومة معلقة فى الميزان ، وساعد هذا الرعب على تكوين شخصيتها القائمة على الريبة

واستشعار الخطر ، وكان له صداه فيما اتسم به عهدها المتأخر من قسوة عندما ساورها بشأن مارى ستيوارت نفس القلق الذى كان يساور مارى تيودور وقتذاك حول إليزابث . وفى ١٨ مايو نقلت من أصبحت ملكة فى الأيام التالية إلى وود ستوك حيث عاشت مطلقة السراح فى معتقل تحت الرقابة : وأدى خوف مارى من مؤامرة أخرى تدبر لتولية إليزابث على العرش إلى أن تتعجل مارى الزواج أملا فى أن تحظى بالأمومة .

ولم يكن فيليب متلهفاً إلى هذا الحد . وتزوج مارى يوم ٦ مارس سنة ١٥٥٤ بطريق الوكالة ولكنه لم يصل إنجلترا قبل يوم ٢٠ يوليو ، ودهش الإنجليز وسرهم أن يجدوه شخصاً يمكن احتماله بدنياً واجتماعياً : وجه غريب مثلث الشكل تقريباً ينحدر من جبهة عريضة إلى ذقن مدبب يزينه شعر أصفر ولحية ، ولكنه يمتاز بخلق كريم وبديهة حاضرة ومواهب تصلح لأى شىء ، ولم يبد أى إيماءة بأنه هو وحاشيته يعدون الإنجليز برابرة . بل إنه قال كلمة رقيقة فى صالح إليزابث ، ولعله كان يتنبأ بأن مارى ربما لا ترزق بذرية وأن إليزابث قد تكون يوماً ملكة ، وذلك يكون شراً أهون من أن ترتقى مارى ملكة الإسكوتلنديين — التى ارتبطت منذ عهد بعيد بفرنسا — عرش انجلترا . وعلى الرغم من أن مارى كانت أكبر سناً بكثير من فيليب فإنها تطلعت إليه بإعجاب ساذج ، وكانت متعطشة إلى الحب طوال سنوات عديدة ، فابتهجت وقت ذاك لفوزها بأمير ساحر وقوى إلى هذا الحد ، ومنحته نفسها بإخلاص لا شك فيه إلى حد أن الحاشية تساءلت هل أصبحت إنجلترا بالفعل تابعة لإسبانيا ، وكتبت لشارل الخامس فى تواضع رسالة تقول فيها إنها : « أسعد مما أستطيع التعبير عنه لأنى فى كل يوم أكتشف فى زوجى الملك من الفضائل العديدة وصفات الكمال ما يدفعنى باستمرار إلى أن أتضرع إلى الله أن يهبنى العون لأسعده(٤١) » .

وكانت رغبتها فى أن تلد ابناً لفيليب وولى عهد لإنجلترا ، عارمة استغرقت كل اهتمامها إلى حد أنها سرعان ما تصورت أنها حامل . ولقى انقطاع الطمث عندها وقتذاك ترحيباً ، باعتباره شارة ملكية ، وألجم الأمل ألسنة من خطر لهم أن تلك الحالة حدثت لها كثيراً من قبل . وتقبل الناس الاضطرابات الهضمية على أنها أدلة أخرى على الأمومة ، وأبلغ سفير البندقية أن « حلمتى » الملكة قد انتفختا ودر ثدياها لبناً . وابتهجت مارى وقتاً طويلا عندما راودتها فكرة أنها أيضاً يمكن أن تحمل طفلا شأنها فى هذا شأن أفقر امرأة فى مملكتها ، ولا نستطيع أن نتصور مدى تعاستها عندما أقنعها أطباؤها آخر الأمر أن انتفاخ بطنها إنما حدث بسبب الاستسقاء ؛ وفى غضون ذلك كانت شائعات حملها قد اكتسحت إنجلترا وأقيمت الصلوات ونظمت المواكب من أجل ولادتها السعيدة ، وسرعان ما انتشرت شائعة بأنها أنجبت ولداً . وأغلقت الحوانيت ابتهاجاً واعتبر اليوم عطلة واحتفل الرجال والنساء فى الشوارع ، وقرعت نواقيس الكنائس وأعلن أحد رجال الدين أن الطفل « أشقر وجميل » كما يليق بأمير(٤٢) . وتحطمت مارى من الإحباط والخجل فانزوت شهوراً عن أنظار الجمهور .

وشعرت بالعزاء إلى حد ما بعودة الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان شارل قد أخر بول عن السفر فى بروكسل لأنه عارض الزواج الإسبانى ، أما وقد تم هذا الزواج فإن اعتراضات الإمبراطور هدأت ، وعبر الكاردينال القناة بصفته قاصداً رسولياً (٢٠ نوفمبر سنة ١٥٥٤) إلى البلاد التى كان قد تركها منذ اثنين وعشرين عاماً . وقوبل بترحيب حار من الموظفين ورجال الاكليروس والشعب أثبت الرضا العام عن تجديد العلاقات مع البابوية . وحيا مارى بعبارة تكاد تكون منتقاة من معجمه : « السلام عليك يا مريم ، الممتلئة بالنعمة ، الرب معك . أنت مباركة بين النساء **Ave Maria, gratia Plena, Dominus tecum, benedicta tu in mulieribus** وكان على ثقة

من أنه قريباً سوف يردف قائلا : « مباركة ثمرة رحمك[٤٣] » .

وعندما علم المجلس النيابى أن بول جاء معه بموافقة البابا على احتفاظ الحائزين الحاليين بأملاك الكنيسة المصادرة فرح الجميع ، كما يحدث فى أى زفاف . وأعرب أعضاء المجلس النيابى وهم راكعون عن ندمهم لما ألحقوه من إساءات بالكنيسة ومنح الأسقف جاردنر التائبين الغفران بعد أن اعترف بتذبذبه . واعترف بسيادة البابا فى الشئون الكنسية وتأكد حقه فى دخول السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين و « الثمرات الأولى » وأعيد إنشاء المحاكم الأسقفية وأعيدت ضرائب العشور الأبرشية لرجال الاكليروس وجددت القوانين القديمة ضد اللاأدرية وأعيدت الرقابة على المطبوعات من سلطات الدولة إلى سلطات الكنيسة . وبدا كل شيء كسابق عهده بعد فتنة دامت عشرين عاماً .

ولبث فيليب مع مارى ثلاثة عشر شهرا يأمل فى أن يرزق بطفل ، وحينما لم يظهر أى دليل مؤكد رجاها أن تسمح له بالذهاب إلى بروكسل حيث كان نزول والده عن العرش يقتضى حضوره . ووافقت فى حزن وانطلقت معه إلى النقالة المائية التى سوف تقله إلى أدنى نهر التيمس ، وأخذت ترقب النقالة من نافذة إلى أن اختفت (٢٨ أغسطس سنة ١٥٥٥) . وشعر فيليب نه قد أدى واجبه طوال سنة لقى فيها من أمره عسراً وهو يطارح الغرام امرأة مريضة ، وكافأ نفسه بسيدات بروكسل القويات البنية .

وكان بول وقتذاك أعظم رجل يتمتع بالنفوذ فى إنجلترا . وشغل نفسه بإعادة تنظيم الكنيسة الإنجليزية وإصلاحها . وأعاد فتح بعض أديار الرهبان ودير للراهبات بمساعدة مارى . وسعدت مارى عندما رأت بعث العادات الدينية القديمة ، وسرها أن ترى الصلبان والصور المقدسة فى الكنائس مرة أخرى ، وأن تشترك فى مواكب تتسم بالورع مع القساوسة أو الأطفال أو الطوائف المهنية فتجلس أو تركع لتحضر قداسات تقام للأحياء والأموات.

رغسات وقبلت يوم خميس العهد عام ١٥٥٦ أقدام إحدى وأربعين امرأة مسنة وهى تدلف على ركبتها من واحدة للأخرى ومنحتهن جميعها صدقات(٤٤) . وما دام الأمل فى الأمومة قد تبدد أصبح الدين سلواها التى تعينها على الاحتمال .

ولكنها لم تستطع أن تبعث الماضى تماماً . فقد حفزت الأفكار الجديدة إلى اضطراب مثير فى عقول أهل المدينة ، وكانت لاتزال هناك اثنتا عشرة طائفة تنشر كتبها وعقائدها فى الخفاء . وتألمت مارى عند ما سمعت عن جماعات تنكر ألوهية المسيح ووجود الروح القدس وانتقال الخطيئة الأولى . وخيل إليها أن هذه الهرطقات تعد جرائم مهلكة بالنسبة لإيمانها الساذج وأنها أسوأ بكثير من خيانة الدولة . هل فى وسع الهراطقة أن يعرفوا كيف يعاملون الروح البشرية خيرا مما يعرفه كاردينالها المحبوب ؟ وترامى إلى أسماعها أن واعظا تضرع بصوت عال أمام جمهور أبرشيته أن يهديها الله أو يرفعها من الأرض(٤٥) . وألقى يوماً كلب ميت ، حلق شعر رأسه جرياً على عادة الرهبان ، وحول عنقه حبل ، من نافذة فى غرفة الملكة(٤٦) . وقى كنت جدع أنف قسيس(٤٧) . ورأت مارى أنه من غير المعقول أن يقوم المهاجرون البروتستانت الذين سمحت لهم بالرحيل عن إنجلترا فى سلام ، بإرسال كتيبات يهاجمونها فيها ويصفونها بأنها حمقاء رجعية ويتحدثون عن « صلاة لاتينية مكروهة عند إقامة قداس وثنى (٤٨) » . وحثت بعض الكتيبات قوادها على أن يهبوا فى ثورة ويخلعوا الملكة(٤٩) . وعقـــد اجتماع من ١٧٫٠٠٠ شخص فى أولدجيت (١٤ مارس سنة ١٥٥٤) ونادى بوضع إليزابث على العرش(٥٠) . وكانت حوادث التمرد فى إنجلترا من تدبير البروتستانت الإنجليز فى الخارج .

وكانت مارى تنزع بفطرتها وعادتها إلى الرحمة — حتى عام ١٥٥٥ فماذا حولها إلى ملكة تحظى بأكبر قدر من الكراهيـــة بين الملكات

الإنجليزيات ؟ هناك استفزاز الهجمات التى أظهرت عدم الاحترام لشخصها أو عقيدتها أو مشاعرها من ناحية ، وهناك الخوف من أن تكون الهرطقة ستاراً لثورة سياسية من ناحية ثانية ، وهناك الشدائد التى عانتها وخيبة الأمل المتكررة التى كدرت صفو روحها وجعلت حكمها على الأشياء مظلماً من ناحية ثالثة ، وهنالك إيمانها الذى لا يتزعزع بصواب آراء مستشاريها الذين تثق بهم أكثر من أى شخص آخر — فيليب وجاردنر وبول — التى تذهب إلى أن الوحدة الدينية أمر لا غنى عنه للتضامن القومى وبقائه . وسرعان ما أفصح فيليب عن مبادئه فى الأراضى المنخفضة . وكان الأسقف جاردنر قد أقسم بالفعل (ربيع عام ١٥٥٤) أن يحرق الأساقفة البروتستانت الثلاثة — هوبر وريدلى ولاتيمر — ما لم يرتدوا عن عقيدتهم(٥١) . وكان الكاردينال بول ، مثل مارى ، ينزع بفطرته إلى الرحمة ولكنه كانت لا تلين له قناة فى العقيدة ، وقد أحب الكنيسة حباً جماً إلى حد أنه كان يرتجف للتشكك فى عقائدها أو سلطتها . ولم يكن له دور قيادى مباشر أو شخصى فيما قامت به مارى من اضطهاد ، وأشار بالاعتدال وأطلق مرة سراح عشرين شخصاً كان الأسقف بونر قد حكم عليهم بالموت حرقاً(٥٢) .

ومع ذلك فإنه أصدر تعليماته لرجال الأكليروس بأنه إذا فشلت كل طرق الإقناع سلمياً فإن كبار الهراطقة يجب أن تنتزع منهم الحياة ويستأصلوا مثل الأطراف الفاسدة من الجسد(٥٣) » . وأعربت مارى عن رأيها فى تردد . « نعتقد أن إثارة عقاب الهراطقة يجب أن يتم بغير اندفاع ولا نتخلى فى الوقت نفسه عن إقامة العدالة لهؤلاء الذين يسعون إلى خداع البسطاء(٥٤)» . وكانت مسئوليتها فى بادئ الأمر مقصورة على الإذن ولكنها كانت حقيقة .

وعندما تبين لها (١٥١٨) أن الحرب مع فرنسا قد عادت عليها وعلى

إنجلترا بالوبال عزت الفشل إلى غضب الله عليها لترفقها بالهرطقة وتشددت قطعاً بعد ذلك فى الاضطهاد .

وافتتح جاردنر عهد الإرهاب بأن استدعى إلى محكمته الأسقفية سنة من رجال الإكليروس (٢٢ يناير سنة ١٥٥٥) كانوا قد رفضوا قبول العقيدة التى توطدت من جديد(*) .

وارتد واحد منهم وأحرق أربعة منهم جون هوبر وأسقف جلوسستر وورسستر الذى أقيل (٤ - ٨ فبراير سنة ١٥٥٥) . ويبدو أن جاردنر أصيب بانتكاس فى الشعور بعد تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام فلم يشترك بعد ذلك فى الاضطهاد ، وانهارت صحته ومات فى نوفمبر من هذا العام . واضطلع الأسقف بونر بالمذبحة . ونصح فيليب ، وكان لا يزال بإنجلترا ، بالاعتدال وعندما أدان بونر ستة ، وحكم عليهم بالحرق اعترض سفير الإمبراطور رينار على « هذا التهور البربرى(٥٧) » ونديد كاهن الاعتراف الخاص لفيليب ، وهو أخ أسبانى من الرهبان ، وهو يعظ أمام الحاشية ،

(*) إن المصدر الأساسى لمـا قامت به مارى من اضطهاد هو كتاب جون فوكس وعنوانه : « فى أمور الكنيسة وفى التعليق على مآثرها **"Rerum in ecclesia gestarum Commentarii"** (١٥٥٩) الذى ترجم إلى الإنجليزية بعنوان : « أفعال وآثار » (١٥٦٣) ويعرف بغير كلفة باسم « كتاب الشهداء » وأصبح الوصف الواضح لمحاكمات البروتستانت ووفياتهم من المقتنيات الحبيبة عند الأسرة بعد الكتاب المقدس عند المتطهرين (البيوريتان) ، وعلى الرغم من أن القساوسة من الآباء اليسوعيين نشروا (١٥٠٣) خمسة مجلدات تهاجم صحة ما ورد فيه فقد كان له أثر قوى فى تكوين مزاج إنجلترا فى عهد أليفر كرومويل . وقد انتقده الكثيرون من رجال الكنيسة البروتستانت لما فيه من المبالغة والخطأ فى النقل والتحامل وعدم العناية بالتفاصيل(٥٥) . ويقارن مؤرخ كاثوليكى بينه وبين سير القديسين فى القرون الوسطى فى مدى ما يمكن الوثوق به مما ورد فيه ، ويختم كلامه بقوله إنه على الرغم مما يكتنف الكثير من التفاصيل من شكوك « فليس هناك من يشك فى أن هذه الأحداث وقعت بالفعل »(٥٦) .

بالأحكام باعتبارها مخالفة للروح المعتدلة والمتسامحة التى حث عليها المسيح[٥٨] مراراً وتكراراً . وأوقف بونر الأحكام لمدة خمسة أسابيع ، ثم أمر بتنفيذها ، وأعتقد أنه كان رفيقاً متساهلا ، والحق أن مجلس الملكة أنبه يوماً لأنه لا يظهر حماسة كافية فى مطاردة الهرطقة[٥٩] وعرض على كل هرطيق منحه عفواً كاملا إذا ارتد عما يقول ، وكثيراً ما أضاف وعداً بتقديم مساعدة مالية أوعمل صريح[٦٠] ، ولكن عندما كانت هذه الإغراءات تفشل كان يجيز الحكم بشراسة ، وكانت توضع عادة حقيبة ممتلئة بالبارود بين ساقى المحكوم عليه حتى تؤدى ألسنة اللهب إلى موت سريع ، ولكن الخشب احترق ببطء فى حالة هوبر ، وخاب أثر البارود فلم ينفجر . وقاسى الأسقف السابق آلاماً استمرت ساعة تقريباً .

- وكان معظم الشهداء عمالا بسطاء تعلموا تلاوة الكتاب المقدس وشجعوا على العمل بالتفسير البروتستانتى له إبان الحكم السابق . ولعل المضطهدين رأوا أن من العدل استدعاء رجال الدين الذين بذلوا الجهد لتحفيظ مبادئ العقيدة البروتستانتية ، ليشهدوا لها بالاستشهاد ، وفى سبتمبر سنة ١٥٥٥ أحضر كرانمر وعمره ستة وستون عاماً ، وريدلى وعمره خمسة وستون عاماً ، ولاتيمر ، البالغ من العمر ثمانين عاماً ، من سجن البرج ليقفوا للمحاكمة فى أكسفورد . وكان لاتيمر قد لطخ صفحة حياته البليغة بالموافقة على إحراق المنكرين للتعميد والفرنشسكان العنيدين فى عهد هنرى الثامن . وكان ريدلى قد أيد بنشاط اغتصاب جين جراى للعرش ، ووصف مارى بأنها ابنة سفاح وساعد فى خلع بونروجاردنر من كرسيهما الأسقفين .

وكان كرانمر الرأس المفكر للإصلاح الدينى الإنجليزى ، فقد أحل زواج هنرى وكاترين ، وزوج هنرى من آن بولين ، واستبدل بالقداس كتاب الصلاة العامة واضطهد فريث ولامبرت وغيرهما من الكثالكة ،

ووقع وصية إدوارد بالتاج لجين جراى ، وندد بالقداس باعتباره كفراً ، وكان هؤلاء الرجال وقتذاك فى البرج منذ عامين يتوقعون الموت كل يوم .

وحوكم كرانمر فى أكسفورد فى اليوم السابع من سبتمبر . وقام قضاته بكل جهد ممكن للحصول منه على إنكار لما ذهب إليه . فتمسك بموقفه بحزم وحكم عليه بأنه مذنب ، ولكن لما كان رئيساً للأسافقة فإن الحكم عليه ترك للبابا وأعيد إلى سجن البرج . وفى ٣٠ سبتمبر حوكم ريدلى وتشبث بموقفه وفى اليوم نفسه اقتيد لاتيمر أمام المحكمة الكنسية ، وكان وقتذاك رجلا لا يبالى بالحياة ، يرتدى ثوباً قديماً مهلهلا ورأسه الأبيض تكسوه قلنسوة فوق طاقية نوم فوق منديل وتتدلى نظارتاه من عنقه وربطت بزنارة نسخة من العهد الجديد . وفى اليوم الأول من أكتوبر حكم عليهم بالإدانة وأحرقوا فى اليوم السادس من أكتوبر . وركعوا أمام المحرقة وصلوا معاً . وربطوا بالأغلال إلى عمود حديدى وعلقت حول عنق كل رجل حقيبة ممتلئة بالبارود وأشعلت حزم الحطب . وقال لاتيمر : « تمهل ولا تبتئس يا سيد ريدلى وتصرف كرجل ، فإننا فى هذا اليوم سوف نشعل شمعة بفضل الله فى إنجلترا ، وأنا على يقين أنها لن تطفأ أبداً(٦١) » .

وفى الرابع من ديسمبر أيد البابا الحكم على كرانمر . واستسلم رئيس الأساقفة البروتستانتى الأول فى كنتربرى لخوف يغتفر له ، ولم يكن فى وسع رجل استطاع أن يكتب بإنجليزية قوية الدلالة كتاباً مثل كتاب الصلاة العامة مواجهة هذه المحن دون أن يتعرض لآلام غير عادية فى الجسد والعقل

ولعل كرانمر تأثر بنداء بول الحار فقرر قوله إنه : « تخلى عن كل طرق الهرطقة وأخطاء لوثر وزوينجلى وكرهها وأبغضها » ، وأقر بإيمانه بالشعائر المقدسة السبع واعترف بالتجسيد والمطهر وكل تعاليم الكنيسة الرومانية .

وكان إنكاره هذا قمينا بأن يستبدل به الحكم بسجنه جرياً على ما حدث فى جميع السوابق ، ولكن مارى (طبقاً لما قاله فوكس) رفضت إنكاره لمعتقده على أساس أنه يفتقر إلى الإخلاص وأمرت بإعدام كرانمر(٦٢)

وفى كنيسة سانت مارى بأكسفورد تلاقى صبيحة يوم إعدامه (٣١ مارس سنة ١٥٥٦) إنكاره السابع والأخير . ثم أضاف لدهشة جميع الحاضرين .

وأجىء الآن إلى الأمر العظيم الذى يؤرق ضميرى أكثر من أى شىء آخر فعلته أو قلته طوال حياتى وذلك هو تدبيج رسالة فى الخارج تخالف الحقيقة . وأنا الآن أتبرأ منها وأرفضها ... إنها كتبت خوفاً من الموت .... وذلك شأن جميع البيانات والأوراق التى كتبتها أو وقعت عليها بيدى منذ تجريدى من منصبى ... وما دامت يدى قد أثمت ، بكتابة ما يخالف صدق مشاعرى فإن يدى سوف تعاقب على ذلك لأنها .... سوف تحرق أولا .... أما بالنسبة للبابا فإنى أرفض اعتباره عدواً للمسيح وخارجاً على المسيحية(٦٣) .

وعندما اقتربت ألسنة النيران من جسده وهو على المحرقة مد يده فيها واحتفظ بها هناك ، كما يقول فوكس : « ثابتة لا تتحرك ... حتى يستطيع كل الناس أن يروا يده تحترق قبل أن تمس النار جسده . وأخذ يردد كثيراً كلمات ستيفن « رباه ! تقبل روحى » فى عظمة اللهب الذى سلم الروح القدس(٦٤) .

وكانت وفاته دليلا على بلوغ الاضطهاد ذروته . ومات نحو ٣٠٠ شخص فى أثنائه منهم ٢٧٣ فى السنوات الأربع الأخيرة من ذلك العهـــد . وكلما مضت المحرقة قدماً أصبح من الواضح أنها كانت خطأ . واستمدت البروتستانتية القوة من شهدائها كما فعلت المسيحية فى بواكير عهدها وانزعج كثير

من الكثالكة فى عقيدتهم وشعروا بالخزى من ملكتهم بسبب ما كابده الضحايا من آلام وما أظهروه من جلد . وعلى الرغم من أن الأسقف بونر لم ينعم بالعمل فقد أطلق عليه اسم « بونر الدموى » لأن أسقفيته شهدت معظم ما نفذ من أحكام الإعدام ووصفته امرأة بأنه « الذباح المعروف وعهد المجزرة العامة لكل الأساقفة فى انجلترا[٦٥] » ، ووجد المئات من الإنجليز البروتستانت ملجأ فى فرنسا الكاثوليكية وسعوا هناك إلى وضع نهاية للعهد الحزين .

وبينما كان هنرى الثانى يطارد البروتستانت الفرنسيين فإنه شجع على تدبير المؤامرات الإنجليزية ضد مارى الكاثوليكية التى أدى زواجها بملك إسبانيا إلى ترك فرنسا محاطة بقوى معادية . واكتشف العملاء البريطانيون فى أبريل عام ١٥٥٦ مؤامرة يتزعمها هنرى ددلى لخلع مارى وتولية اليزابث على العرش . وتم القبض على عدة أشخاص منهم اثنان من أفراد بيت اليزابث ،وأقحم اعتراف اسم اليزابث نفسها والملك الفرنسى . وقمعت الحركة ولكنها تركت مارى فى خوف دائم من الاغتيال .

وواجهت جماعة من الهاربين محناً كشفت عن مزاج العصر الذى تتسلط العقيدة عليه ، فقد جاء إلى لندن عام ١٥٤٨ جان لاسكى ، وهو كالفينى بولندى وأنشأ هناك أول كنيسة مشيخية فى إنجلترا . وبعد ارتقاء مارى العرش بشهر ترك لاسكى وجانب من جمهور المصلين معه لندن فى سفينتين دنمركيتين . وفى كوبنهاجن منعوا من الدخول ما لم يوقعوا على الاعتراف الرسمى اللوثرى الخاص بالعقيدة . فأبوا باعتبارهم كالفينيين متمسكين بعقيدتهم . ولم يسمح لهم بالنزول ، فسافروا بحراً إلى وسمار وليبسلك وهامبورج ، وفى كل حالة كانوا يواجهون بالمطلب نفسه ويردون بالرفض[٦٦] . ولم يذرف اللوثريون فى ألمانيا أية دموع على ضحايا مارى بل نددوا بهم باعتبارهم هراطقة مكروهين و « شهداء للشيطان» بسبب إنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان[٦٧] المقدس . وأدان كالفن تعصب اللوثرين الذى لا يعرف الرحمة ، وفى ذلك العام

(١٥٥٣) أحرق سرفيتوس فى المحرقة . وبعد أن ظل الهاربون تتقاذفهم أمواج بحر الشمال معظم أيام الشتاء سمح لهم بالدخول أخيراً ووجدوا معاملة إنسانية فى إمدن .

وسارت مارى إلى نهايتها المحتومة بقدر كئيب . وكان زوجها التقى فى حرب غير منطقية وقتذاك مع البابوية وكذلك مع فرنسا ، وجاء إلى إنجلترا (٢٠ مارس سنة ١٥٥٧) وحث الملكة على أن تشترك إنجلترا فى الحرب باعتبارها حليفة . ولكى يخفف من كراهية الإنجليز لمهمته ، أقنع مارى بالاعتدال فى الاضطهاد(٦٨) ، ولكنه لم يستطع أن يكسب بسهولة تأييد الجمهور بل كان الأمر على العكس ، فبعد شهر من وصوله أشعل توماس ستافورد ، ابن أخى الكاردينال بول ، ثورة لتحرير إنجلترا من مارى وفيليب على السواء ، ولكنه هزم وشنق (٢٨ مايو سنة ١٥٥٧) ولقد أنزل البابا كأس الملكة تعاسة برفضه الاعتراف ببول قاصداً رسوليا واتهم بالهرطقة . وكانت مارى فى لهفة لإرضاء فيليب ومقتنعة أن هنرى الثانى قد أيد ستافورد فى مؤامرته ، فأعلنت الحرب على فرنسا فى ٧ يونية . وبعد أن حقق فيليب غرضه غادر إنجلترا فى يوليو . وراود الشك مارى فى أنها لن تراه أبدا مرة أخرى . وقالت : « سوف أعيش ما بقى من أيامى دون رفيق من الرجال(٩٦) » . وفقدت انجلترا فى هذه الحرب التى لم ترغب فيها كاليه (٦ يناير سنة ١٥٥٨) التى كانت قد احتفظت بها ٢١١ عاما وآلاف الإنجليز من الرجال والنساء الذين عاشوا هناك وفروا الآن إلى بريطانيا ، لاجئين معدمين ، وأذاعوا الاتهام المرير المنسوب إلى حكومة مارى بأنها أهملت إهمالا إجراميا فى الدفاع عن آخر ممتلكات إنجلترا فى القارة . وعقد فيليب صلحا موافقا له دون أن يطلب استعادة كاليه . وكانت ثمة عبارة قديمة تتردد هى أن ذلك الميناء الثمين كان « ألمع جوهرة فى التاج الإنجليزى » . وأضافت مارى عبارة أخرى إلى الحكاية « عند ما أموت وتفتحون صدرى فسوف

تجدون كاليه فى قلبي(٧٠) » . وفى أوائل عام ١٥٥٨ اعتقدت الملكة مرة أخرى أنها حامل . وكتبت وصيتها إذ كانت تتوقع أن تكون ولادتها خطيرة وبعثت برسالة إلى فيليب تتوسل إليه فيها أن يحضر الحادث السعيد .. فبعث إليها بتهانيه ولكن لم تكن هناك ضرورة لحضوره ، فقد كانت مارى على خطأ . وكانت وقتذاك امرأة مهجورة من الجميع ، ولعلها كانت مخبولة إلى حد ما . كانت تجلس على الأرض الساعات الطوال وركبتاها مرفوعتان إلى ذقنها ، وكانت تتجول فى قاعات القصر مثل شبح ، وكتبت رسائل لطختها بدموعها للملك الذى توقع وفاتها ، فأمر عملاءه فى إنجلترا أن يستميلوا قلب اليزابث للزواج من أمير إسبانى أو من فيليب نفسه .

وفى أيام الصيف الأخير من حياة مارى انتشر وباء حمى البرداء فى انجلترا وأصيبت به الملكة فى سبتمبر عام ١٥٥٨ وتحالف مع الاستسقاء و « زيادة الصفراء السوداء » فأضعفها إلى حد أن رغبتها فى الحياة تلاشت . وفى ٦ نوفمبر بعثت بجواهر التاج إلى اليزابث . وكان هذا عملا كريماً أذعن فيه حبها للكنيسة لرغبتها فى منح إنجلترا وراثة منظمة للعرش . وتعرضت للغيبوبة فترات طويلة واستيقظت من إحدى هذه الغيبوبات لتروى كيف رأت حلماً سعيداً عن أطفال يلعبون ويغنون أمامها(٧١) . وفى ١٧ نوفمبر سمعت القداس مبكراً وهتفت بالعبارات التى يرددها المصلون عادة وراء القس بحرارة . وماتت قبل الفجر .

وفى اليوم نفسه مات الكاردينال بول ، الذى منى بهزيمة منكرة مثل مليكته . ولا بد لنا عند تقديره أن نسجل الحقيقة المرة وهى أنه كان قد أدان ثلاثة رجال وامرأتين وحكم عليهم بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة فى مستهل الشهر الأخير . صحيح أن كل الطوائف ما عدا المنكرين للتعميد فى تلك [illegible] يعتنقون اليقين وفقد [illegible] ضرورة المحافظة على الوحدة [illegible] ، ولكن لم

يحدث فى أى مكان فى العالم المسيحى المعاصر — حتى فى إسبانيا — أن أحرق هذا العدد الكبير من الرجال والنساء بسبب آرائهم كما حدث فى عهد تولى ريجينالد بول رئاسة الكنيسة الإنجليزية .

وفى وسعنا أن نقول كلمة رفيقة عن مارى . فقد أدّى الحزن والمرض وكثير مما تعرضت له من أخطاء إلى انحراف عقلها . ولم تتحول من الحلم إلى القسوة إلا بعد مؤامرات كانت تستهدف حرمانها من التاج الذى تضعه على رأسها وأصاخت السمع فى ثقة زائدة لرجال الدين الذين سعوا إلى الانتقام بعد أن تعرضوا هم أنفسهم للاضطهاد . وكانت تعتقد حتى آخر لحظة فى حياتها أنها بالقتل إنما تؤدى فرائضها نحو العقيدة التى أحبتها كمجال حيوى لبقائها . وهى لا تستحق اسم « مارى الدموية » ما لم تسحب تلك الصفة على عصرها بأسره ، فهو يهون بلا رحمة من شأن شخصية فيها الكثير من الصفات التى تستحق الحب :

وإن امتيازها العجيب إنما هو استمرارها فى العمل الذى بدأه والدها لإبعاد إنجلترا عن روما . وأظهرت لإنجلترا ، ولما نزل كاثوليكية ، أسوأ جانب للكنيسة التى خدمتها ، ولما ماتت كانت إنجلترا مهيأة أكثر من ذى قبل لاعتناق العقيدة الجديدة التى جاهدت للقضاء عليها .